الوسَطيّة

الوسَطية مفهوم يُروّج له قادة المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم معتدلين في مواقفهم، وعلميين في فهمهم لتعاليم الدين ونصوص القرآن الكريم. ويأتي هذا المفهوم اليوم ضمن سياق فكري يدعي بأن هناك شيئاً اسمه وسطية في الدين، ما يجعله بمثابة محاولة لتأسيس فلسفة جديدة بين المسلمين تقوم على الاعتدال فيما يتعلق بالموقف من غير المسلمين، ومن فهم الشرائع الدينية وتطبيقها على الأرض.

إن الوسطية كمحاولة فكرية لإعادة تعريف موقف المتدينين من غيرهم من أتباع الديانات الأخرى هي محاولة فاشلة لا أعتقد أنه سيكتب لها النجاح، لأن التطرف والإيمان الأعمى بالغيبيات أصبح الدافع الذي يحرك غالبية المؤمنين من مسلمين وغير مسلمين، والمخرج الوحيد أمامهم للهروب من واقع حياتهم المزري. إن رفض الواقع وتكفير القائمين عليه والدعوة لخلق واقع جديد على أنقاضه كانت رسالة المحرومين والمستضعفين عبر التاريخ، لكنها كانت رسالة غير واقعية وغير علمية، وأحياناً غير إنسانية كذلك، ما جعلها تعجز عن تغيير الواقع وتجاوز العقبات التي حالت دون تحقيق العدالة والمساواة في المجتمع.

إن الواقع الحياتي الذي يتصف بالعجز عن تحقيق امنيات الناس، ويفشل في إثارة هممهم لمواجهة تحديات عصرهم لا بد وأن يتسبب في حدوث ردة فعل شعبية تنادي بالتغيير وإعادة تشكيل معطيات الواقع على أسس مغايرة لما هو قائم. وتتراوح حدة ردة الفعل تبعاً لمدى سوء الواقع وظلم القائمين عليه والمدافعين عنه والمستفيدين منه. وفي ضوء سوء الواقع الحياتي لمعظم شعوب الدول العربية والإسلامية، فإن ردة الفعل جاءت حادة وقوية، يقودها رجال متطرفون يرفضون واقع الحياة في تلك الدول، ويعادون كل من يختلف معهم في فهمه للدين والواقع وكيفية تغييره.

من ناحية ثانية، لما كان أتباع الديانات عامة يميلون إلى الاعتقاد بأن الماضي يملك مفاتيح صنع المستقبل، فإن القوى الدينية المتطرفة اتجهت إلى المناداة بإعادة إحياء عصر مضى بكل ما له وما عليه بوصفه العصر الذهبي القادر وحده على تجاوز العقبات والمحن. لكن التاريخ، وخلافاً لمعتقدات المتطرفين ورغباتهم، لا يعود إلى الوراء ولا يكرر نفسه أبداً، ما يعني أن التطرف مصيره الفشل. مع ذلك، لا يجوز الانتظار حتى يفشل المتطرفون، لأنهم، في سبيل خلق واقع جديد يحاكي الماضي، يقومون عادة بهدم الكثير من الانجازات على الأرض، وتدمير نظم التعليم بغض النظر عن مدى تقدمها ومناهجها، وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء عقوداً، وربما قروناً، خاصة فيما يتعلق بنواحي الحياة

الفكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية. وهذا من شأنه أن يجعل مهمة التصحيح المنطلقة من أسس علمية ونظرة إنسانية في غاية الصعوبة والتعقيد، قد لا تتحقق لأجيال.

إن كل من يؤمن بعقيدة دينية أو فلسفة حياتية مسخرة لخدمة عملية سياسية، أي كل من يؤمن بايديولوجية هو إنسان متطرف، أو مشروع إنسان متطرف. ويعود السبب في ذلك لأن طبيعة أفكاره ومعتقداته ورؤيته للواقع والتاريخ تدفعه إلى الاعتقاد بأن ايديولوجيته تملك وحدها الحقيقة والحل لمشاكل الواقع ومواجهة تحديات المستقبل. وهذا يحرم ذلك العقائدي المأدلج من نعمة التفكير بواقعية وعقلانية تدفعه نحو احترام حق غيره من الناس في الاختلاف في الرأي والموقف. وهذا يعني أنه لا يوجد موقف وسطي أو معتدل ضمن أية ايديولوجية مهما كانت طبيعتها. وكما لا يوجد وسطي أو معتدل في ايديولوجية، لا يوجد معتدل في حرب، فكل من يحمل السلاح لمقاومة نظام حكم أو الاعتداء على أموال وحرية غيره من الناس هو متطرف بامتياز، لأن الهدف الأول والاخير لكل حرب وعمل مُسلح هو النصر مهما كان الثمن، وبغض النظر عن الوسائل المستخدمة.

أن الإنسان الوسطي هو ذلك الإنسان الذي يحترم التقاليد الدينية ولكن لا يتعصب لها، ولا ينظر إلى غيره من أتباع الديانات الأخرى بوصفهم كفاراً. لذلك اعتقد أن آخر جيل من المسلمين الوسطيين المعتدلين هو جيل آباءنا وأمهاتنا الذين أمنوا بفطرتهم، ومارسوا الشعائر الدينية ببساطتهم وبساطة تقاليدهم، واحترموا مبادئ الإسلام وأخلاقياته ببديهية الإنسان الفلاح المتواضع.

إن العمل على تقويض المنطق الذي يقوم عليه التطرف، ومساعدة المتطرفين على استيعاب معطيات العصر وحقائقه وكيفية التعامل معه من منظور علمي -واقعي - إنساني هو الأسلوب الوحيد للتخلص من التطرف والغوغائية والحلم في الماضي. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بتغيير الموقف من الآخر والدين والحياة من خلال إعادة النظر في البنية الثقافية العربية والإسلامية بكافة عناصرها لتكون أكثر وعياً بحقائق العصر، وأكثر قدرة على التعامل مع التحديات المصيرية بعلمية وواقعية. أما المدخل لمثل هذا التغيير فيكمن في تحديث نظم التعليم في المدرسة والجامعة، وأستخدام أساليب التربية العلمية في البيت والمدرسة، واعطاء الطلبة فرصة التعرف على أكثر من دين، وحرية مناقشة القضايا التي تثيرها الديانات المختلفة والمبادئ والمعتقدات والأفكار التي تروج لها.